

ملخص

في هذه الدراسة نحاول تسليط الضوء على النثر الصوفي، والكشف عن مختلف فنونه وأشكاله الأدبية التي أبدع فيها الصوفيّة، وإبراز أهم مظاهر التجديد فيه سواء أكان ذلك على مستوى الشكل أم المضمون من خلال تقديم بعض النماذج المختارة من الشعر الصوفي.

الكلمات المفتاحية: التصوف، النثر الصوفي، أشكال النثر الصوفي، أبرز مظاهر التجديد في النثر الصوفي.

Abstract

In this study we focus on Sufi prose, then appear all its arts and literature forms in which Sufism was created and to highlight the most manifestation of renewal whether in form or content by presenting selected models.

Key-words: Sufism; Sufi prose; forms of Sufi prose; the most prominent manifestation of renewal in Sufi prose .

Url de la revue :

<https://www.asjp.cerist.dz/en/Prentati-onRevue/484>

*-المؤلف المراسل.

النثر الصوفي وفنونه الأدبية بين التقليد والتجديد "نماذج مختارة"

Sufi prose and its literary arts between tradition and renewal *Selected models*

أمينة تجاني *

جامعة الشهيد حمّة لخضر -الوادي (الجزائر)

aminatj39@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020.12.21

تاريخ القبول: 2020.12.23

تاريخ النشر: 2021.02.24

**Ex
PROFESSO**

المجلد 06 ، العدد 01 ، السنة 2021

مقدمة:

الأدب الصوفي هو أدب خلد آثار الصوفية شعرا ونثرا، حكمة ونصيحة ورسالة وموعظة ومثلا وعبرة. أدب تناول دقائق المعرفة والفكر والمحبة، لامس أعماق مشاعر الإنسان، عبّر عن حقيقة التجربة، زخر بالمعاني والأخيلة والرموز، أدب لم يضاهيه أدب قديما أو حديثا.

وكما يرى أحمد أمين، هو "أدب غني في شعره، غني في فلسفته، وهو سلس واضح وإن غمض أحيانا، وفلسفته من أعماق أنواع الفلسفة الإلهية وأدقها، ومعانيه في نهاية السمو، تقرؤها فتحسب أنك تقرأ معاني رقيقة عارية لا ثوب لها من الألفاظ، خياله رائع يسبح بك في عالم كله جمال وعواطف صادقة يعرضها عليك كأنها كتاب إلهي تقلبه أنامل الملائكة، ولا بد أن يكون الإنسان هائما أيضا مسلحا بكثير من الأذواق والحالات التي يعتقدها الصوفية حتى يسايرهم في الفهم

1.

أدب شهد غزارة في الشكليات؛ الشعر والنثر، وهذا الأخير أحدث ثورة في المضامين والأشكال فجرت اللغة المعهودة فالتقت حضارة اللفظ حضارة المعنى وانصهرت الحضارتان في بوتقة واحدة مثلت ذروة شامخة في البيان العربي. ومع ما يتمتع به النثر الصوفي من جدة وفردة في الشكل والمضمون إلا أنه لم يحظ بالاهتمام والحوطة لدى الدارسين.

ويعلل زكي مبارك ذلك بأن الصوفية كانوا قد انحازوا جانبا عن صحبة الأدباء، وأن الأدباء كانوا قد أقبلوا على الصور الحسية إقبالا شغلهم عن الأدب الذي يصور أحوال الأرواح والقلوب، فظنوا أدب الصوفية بعيدا عن المجال الذي تسابقوا فيه. ولو أمعن النقاد في آداب الصوفية لاتخذوا منها شواهد في التشبيهات والمجازات ولرأوا فيها كلمات متخيرة تصلح نماذج لإصابة المعنى والغرض².

وإن كانت بعض الكتب الخاصة بالتصوف قد تناولت النثر ككتاب (اللمع) للسراج الطوسي وكتاب (طبقات الصوفية) لأبي عبد الرحمن السلمي، وكتاب (حلية الأولياء) لأبي نعيم الأصفهاني وغيرها. إلا أنها تناولته من جهة التاريخ والتصنيف والتراجم والجمع فقط .

وهذا ما جعلنا نفوس بحر النثر الصوفي بحثا عن درره ومكنوناته، وكشفا عن فنونه وأدبياته، وإنصافا لأهله وأربابه، محاولين الإجابة عن الإشكاليات الآتية:

ما المقصود بالنثر الصوفي؟ وما هي أبرز أشكاله؟

ما هي أبرز مظاهر التجديد في النثر الصوفي؟

وللإجابة عن هذه الإشكاليات خضنا غمار البحث ورسمنا خطاه بتحديد الكلمات المفتاحية الآتية: التصوف، النثر الصوفي، أشكال النثر الصوفي، أبرز مظاهر التجديد في النثر الصوفي.

I. التصوف:

التصوف عقيدة وإيمان، علم وعمل، أدب ومحبة، عبادة ومجاهدة، تطبيق عملي وممارسة حقيقية للشريعة الإسلامية في الحياة اليومية، منهج للحياة الربانية التي أرادها الله تعالى لعباده؛ يوازن بين متطلبات الجسم والروح على حد سواء، بل يتجاوز المادة إلى الروح والدنيا إلى الآخرة، ويرتفع بالإنسان المخلوق إلى معرفة خالقه وعبادته حق العبودية، ومحبه وإيثاره على كل من سواه، وذلك عن طريق تزكية النفس ومجهدتها في الله حتى يهديها سبيله وتنتصر على شهواتها الظاهرة والباطنة، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَهُمْ سَبِيلَنَا﴾³.

وقد عرّف الشيخ أحمد التجاني التصوف تعريفا جامعاً مانعاً بقوله: "هو امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن من حيث يرضى لا من حيث ترضى"⁴. ففي هذا التعريف حدّ الشيخ حدود هذا العلم وأسس المنهجية، والتي تتجلى في:

- العلم بالشريعة (امتثال الأمر واجتناب النهي).
- اتباع الشريعة في مقام الإسلام (في الظاهر)، بمعنى تطهير الجوارح الظاهرة من الذنوب، كالسرقة والقتل والزنا والغيبة والنميمة ...
- اتباع الشريعة في مقام الإيمان (في الباطن)، بمعنى تطهير القلوب من المساويء والعيوب، كالكبر والعجب والحسد والكراهة والحقد ...
- التطبيق العملي للشريعة في مقام الإحسان (من حيث يرضى لا من حيث ترضى)، في محل الشهود والعيان، وهو صعب فعله إلا لمن أراد إرضاء ربه وخالف مرضاة نفسه، مثل: كظم الغيظ، العفو عند المقدرة، الإحسان عند الإساءة، الصبر عند الشدائد، الرضا عند الابتلاء

...، فالمريدُ طريقَ الله إذا أسيء إليه حلُم، وإذا جُهل عليه عفا وغفر، وإذا أذنب تاب واستغفر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر...

فالتصوّف يجمع بين الشريعة والحقيقة، بمعنى تجسيد الشريعة حقيقة فعلية كما كان حال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي قالت عنه السيدة عائشة -رضي الله عنها-: "كان خلقه القرآن". وهذا هو المعنى الحقيقي للتصوّف الذي دار عليه أغلب أقوال العارفين بالله، من ذلك:

قول أبي علي الروذباري: "...من كانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى"⁵. وقول أبي الحسن النوري: "ترك كل حظ للنفس"⁶. وقول الجنيد: "تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعيّة، وإخماد الصّفات البشريّة، ومجانبة الدّعاوي النّفسانيّة، ومنازلة الصّفات الرّوحانيّة، والتّعلّق بالعلوم الحقيقيّة واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والتّصحّ لجميع الأمّة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الشريعة"⁷.

وقول الشيخ محي الدين بن عربي في الباب الرابع والستين ومائة من كتابه (الفتوحات المكيّة): "التخلق بأخلاق الله تعالى هو التصوّف"⁸. كالصبر والرّضا والحمد والشكر والعفو والإحسان والكرم والسّخاء والرّحمة والتّوبة وغيرها.

وهذه هي الأخلاق التي يحبّها تعالى ويحثّ عليها عباده، لقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾⁹، وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾¹⁰، وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾¹¹، وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾¹²، والآيات في هذا الصّدّد كثيرة.

II. النثر الصوفي:

النثر إحدى واجهتي الأدب الصّوفي، وهو لا يقلّ شأنًا عن الشّعر؛ إذ قام مثله بأدوار فنيّة وموضوعيّة، واستطاع أن يحقق ما حقّقه الشّعر في الحياة الصّوفيّة على الصّعيدين الفكري والاجتماعي.

ومن هذا المنطلق فهو "ليس مجرد أداة توصيل بل هو مستوى تعبيرى يناظر الحالات الصّوفيّة النّفسية والروحية، والتّعبير الصّوفي تعبير شعري بطبيعته ينبع من الجمال من

داخله على نحو عفوي فهو تلاؤم ما ورائي لا شعوري ولدته التجربة الصوفية السابحة في مناطق مجهولة من الفكر والروح والنفس، ولذلك من البديهي أن يستقي الكلام الصوفي من مناطق مجهولة من اللفظ والمعنى والصورة حتى يمكن وصف التجربة الصوفية بأنها تجربة في المعنى لأنها تجربة في الوجود وفي إحساس الإنسان بالكون¹³.

والنثر الصوفي على ضربين؛ نثر "يسرد نظريات التصوف، وفلسفاته، وأشكال الأحوال والمقامات، وحالات الشطح والترقي الصوفي؛ مركزاً على رسالة التوصيل؛ بإيراد المعنى بوضوح، والتدليل عليه، ورسم النظرية والتأويل"¹⁴.

ونثر آخر شعري "يتجسد في نصوص سردية إبداعية، تشدد على الرسالة الجمالية؛ باشتغالها على مادة اللغة، وإعادة تشكيلها تشكيلاً خاصاً، ويشدد على اللغة كدال؛ له كيانه الإيقاعي، وعلى فعل الكتابة؛ كخلق فني وتأسيس إبداعي خاص، مُعادل لحركة التجربة الصوفية، بكل ما تمور به من توق، وتوقد، وتوحد، وإشارات، وحجب، وتلويحات، وتطوُّحات، فهي ليست -فقط- تجربة كتابة؛ وبالتالي فهي لا تنطلق من شكل مُحدد"¹⁵.

III. أشكال النثر الصوفي:

عرف النثر الصوفي العربي أنواعاً أدبية عدة منها أدب الدعاء وأدب المناجاة وأدب النفس وأدب الوصايا وأدب الإشراق والرؤيا والوجد وأدب الحكمة... وكان للنوع أو الأدب الواحد ما يميزه عن بقية الأنواع أو الآداب. بعضها صادق كل الصدق وحاد في وجدانيته يفيض رهبة وخشوعاً، وبعضها يستغرق في مخاطبة الباري. وبعضها حمل الكثير من خطرات النفس ومواجيدها ومن الرؤى التي تفيض على المتصوف ومن الأحوال التي تلم به والمقامات التي يحياها بروحه وقلبه، ومن أبرز هذه الأشكال:

1.III. أدب الحكمة:

الحكمة هي "القول السديد الصائب، النبيل الغرض، السامي الهدف، الذي ينطق عن ميراث النبوة، ويهدي إلى قيم الحياة ومثلها الشريفة، وإلى كل ما ينفع الإنسان في الدنيا والآخرة"¹⁶. وهي "لون من أروع ألوان النثر الفني، تتميز بعمق التجربة، وصدق الرأي، وسداد النظر وطول الخبرة ... ولقد مزج الصوفية الحكمة بصبغة روحية عالية وأكثروا من الحديث فيها، وأفاضوا في الكلام على تجاربهم الروحية مع الإشراق الإلهي، وخاضوا لجج هذه الرحلات الروحية"¹⁷.

ومن أروع نماذج الحكمة الصوفية (فصوص الحكم) لابن عربي، و(الحكم العطائية)، وكتاب (عوارف المعارف) للسهروردي البغدادي (ت 632هـ)، وكتب (الحكمة الإلهية) و(حكمة الإشراق) و(هياكل النور) للسهروردي الشامي (ت 587هـ).

ويعدّ كتاب (الحكم) لابن عطاء الله السكندري سفراً من أسفار الأدب الرفيع حتى أنّه كان يدرّس في الأزهر الشريف¹⁸، وذلك لما يميّزه من "غزارة المعنى، وبعد المرمى، وتعدّد المقصود ... وإشراق الرّوح وصفاء النّفس، وقوّة اليقين، وجلال الهدف، وسمو الغاية، وجمال الأداء، وروعة البيان وسحر التّصوير"¹⁹. ومن حكمه، قوله:

- العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان²⁰.

- متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرّف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك.

- ربّما فتح لك باب الطّاعة، وما فتح لك باب القبول، وربّما قضى عليك بالدّنب، فكان سببا في الوصول²¹.

- الفكر سراج القلب، فإذا ذهب فلا إضاءة له²².

- دلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وثبوت أوصافه على وجود ذاته، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه²³.

- ربّ عمر اتّسعت أماده وقلّت أمداده، وربّ عمر قليلة أماده كثيرة أمداده²⁴.

- الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان: فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشّهود والاستيعاب²⁵.

3. III. أدب الدّعاء:

الدّعاء هو لون من ألوان النّثر الصّوفي الذي أجاد الصّوفية وأبدعوا فيه على مرّ العصور، وأدب الدّعاء هو "أدب موجّه إلى المولى عز وجل، وهو أدب صادق حاد العاطفة، قوي الإحساس بالقدرة الإلهية يفيض خشوعاً ورهبة وخوفاً من مقام الله العليّ الأعلى"²⁶.

والدّعاء بمعنى النّداء وهو عند القشيري "مفتاح الحاجة، ومستروح أصحاب الفاقات وملجأ المضطّرين، ومتنقّس ذوي المآرب، وقد ذمّ الله تعالى قوما تركوا الدّعاء"²⁷. ولهذا كان

الدَّعاء ديدن الصَّوفيَّة ووجهتهم إلى ربِّهم لا يطلبون فيه غالبا شيئا من حظوظ الدُّنيا، ولا من حظوظ الآخرة، إنَّما جَلَّ أَمَلهم أن يطلبوا من المولى عز وجل الرضا والقبول والوصل والقرب. ومن أمثلة الأدعية:

دعاء لأبي حيان التوحيدي (414 هـ) يقول فيه: "اللهم إني أبرأ من الثَّقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التَّسليم إلا لك، ومن الطَّلَب إلا منك، ومن الرِّضا إلا عنك، أسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي، والشكر على نعمك شعاري وثنائي، والنَّظر إلى ملكوتك دأبي وديدني، والانقياد لك شأني وشغلي، والخوف منك أُمِّي وإيماني"²⁸.

ودعاء للشيخ أحمد التجاني يقول فيه: "اللهم اجذبني إليك بحقِّ قلبا وقلبا بجواذب عنايتك، وألبسني خلعة استغراق أوقاتي في الاشتغال بك، واملأ قلبي وجوارحي بذكرك وحبِّك والشَّوق إليك امتلاءً لا يُبقي فيَّ متَّسعا لغيرك، واسقني كأس انقطاعي إليك بتكميل البراءة من غيرك، وعدم التَّفات قلبي لِسِوَاكَ، واجعلني بك لَكَ قائماً، وعنك آخذاً، ومنك مستمعاً، وإليك ناظراً وراجعا، وعليك معوّلاً، وفيك متحرِّكا وساكنًا، مطهِّرا بفيوض تجلِّياتك من جميع الحظوظ والبقايا، ومن جميع المساكنات والملاحظات، وحُلِّ بيني وبين النَّفس وهواها والشَّيطان بسراداتك عصمتك لي منهم، وأدِّمْ لي صفاء الوقوف بين يديك ..."²⁹.

ويضمُّ الدَّعاء أيضا الأحزاب والأوراد اليومية، والصَّلوات على النَّبي المختار³⁰:

1.3.iii. الأوراد والأحزاب :

الورد هو "ما لازم الإنسان قراءته في أوقات منظَّمة، فيقال ورد الصَّباح وورد المساء وورد الليل"³¹. وأمَّا الحزب فهو "ما لم يلزم الإنسان قراءته في وقت معيَّن... فليس لقراءته وقت مخصوص"³². ومنه:

حزب الوقاية المسَمَّى بالدَّور الأكبر لابن عربي، ومنه: "اللهم يا حي يا قيوم، بك تحصَّنت فاحمني بحماية كفاية وقاية حقيقة برهان حرز باسم الله، وأسبل عليَّ يا حليم يا ستَّار كنف ستر حجاب صيانة نجاة (واعتصموا بحبل الله) ..."³³.

حزب التضرُّع والابتهال وقرع باب الملك المتعال: "إلهي وسيِّدي مولاي، هذا مقام المعترف بكثرة ذنوبه وعصيانته، وسوء فعله وعدم مراعاة أدبه، حالي لا يخفى عليك، وهذا ذلِّي ظاهر

بين يديك، ولا عذر لي فأبديه لديك، ولا حجة لي في دفع ما ارتكبته من مناهيك وعدم طاعتك.

وقد ارتكبت ما ارتكبته غير جاهل بعظمتك وجلالك، وسطوة كبريائك، ولا غافل عن شدة عقابك وعذابك، ولقد علمت أنني مُعْتَرِضٌ بذلك لِسَخَطِكَ وَغَضَبِكَ، ولست في ذلك مضاداً لك ولا معانداً، ولا متصاعراً بعظمتك وجلالك، ولا مُتَهَاوِناً بعزتك وكبريائك، ولكن غلبت عليّ شِقْوَتِي، وأحذقت بي شهوتي، فارتكبتُ ما ارتكبته عجزاً عن مدافعة شهوتي، فحجّجتك عليّ ظاهرة وحكمك في نافذ، وليس لضعفي من ينصرني منك غيرك، وأنت العفو الكريم والبرّ الرّحيم الذي لا تخيب سائلاً، ولا تردّ قاصداً، وأنا متدّلّ لك، متضرّع لجلالك، مستمطرّ جودك ونوالك، مستعطفا لعفوك ورحمتك ...³⁴.

2.3.iii. الصلوات :

ومن الأدعية كذلك الصلوات على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -³⁵، ومن ذلك:

جوهرة الكمال للشيخ أحمد التجاني، والتي يقول فيها: "اللهم صل وسلم على عين الرحمة الرّبّانيّة، والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكوّنة الأدمي صاحب الحق الرّبّاني، البرق الأسطع بمزون الأرباح المائلة لكل متعرّض من البحور والأواني، ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني..."³⁶.

الصلوة الغيبية في الحقيقة الأحمديّة للشيخ أحمد التجاني والتي يقول فيها: "اللهم صل وسلم على عين ذاتك العليّة بأنواع كمالاتك الهيّة في حضرة ذاتك الأبديّة على عبدك القائم بك منك لك إليك بأنتم الصلوات الزكيّة، المصلّي في محراب عين هاء الهيّة، التّالي السّبع المثاني بصفاتك النّفسيّة..."³⁷.

• أدب المناجاة:

هو أدب بليغ ولون من ألوان النثر طريف، أتى فيه الصّوفيّة بكل معنى جديد بديع، وقد أنشأوه لمناجاة الله عز وجل، والحديث إليه والاستغراق في خطابه. ومن أدب المناجاة:

مناجاة معروف الكرخي التي يقول فيها: "سيدي إليك تقرب المتقربون في الخلوات، أنت الذي سجد لك الليل والنهار، والفلك الدّوّار، والبحر الزّخّار، وكل شيء عندك بمقدار، وأنت العليّ القهار"³⁸.

ومناجاة السهروردي التي يقول فيها: "يا واجب الوجود ويا فائض الجود، يا نور الأنوار ومدير كل دّوار، أنت الأوّل الذي لا أوّل قبلك، وأنت الآخر الذي لا آخر بعدك"³⁹.

ومناجاة جلال الدين الرومي التي يعبر فيها عن حبه الإلهي الذي يسمو على ما في الدّنيا من جاه ورغبات: "يا من هو عزاء النّفس في ساعة الغمّ والحزن، يا من فيه غناء الرّوح عند مرارة الفقر والعوز، يا من نحوه أولي وجهي في حياتي ووجودي، يا من هو أنسي وفرحتي وسروري، لو أنّي وهبت ملكا لا يبلى، أو أنّ كنزا خفيا فتح لي كل ما في الوجود، لسجدت لك روحي ووضعت وجهي في التّرى، وصحت قائلا: ليس لي مراد غير حبّك، كل شيء يزول ويفنى ويذهب إلى العدم، ويبقى نور الحبّ خالدا سرمدياً"⁴⁰.

ومناجاة الخواص: "اللهم إنّني أستغفرك من كل ذنب قوي عليه بدني بعافيتك، ونالته يدي بفضل نعمتك، وانبسطت إليه بسعة رزقك، واحتجبت فيه عن النّاس بسترک، واتكلت فيه على أناتك وحلمك، وعوّلت فيه على كريم عفوك، اللهم إنّني أعوذ بك أن أقول قولا حقّا فيه رضاك ألتمس به أحدا سواك، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك أسعد بما علّمتني منّي"⁴¹.

وهكذا كان أدب المناجاة تعبيراً صادقاً قوياً جيّاشاً عن نفس أحرقتها الجمال والجلال، وأظلمها الحبّ والهيّام، فما أعزّ وأكرم هذه النّفوس الطّاهرة في مناجاتها لربّ العزّة في قدس سمواته وفي رحاب ملكوته.

• أدب النصائح والوصايا:

للمصوفية الكثير من الأدب العالي في أدب النصائح والوصايا، من ذلك:

نصيحة أبي نصر الطائي (135هـ) لسليمان بن عبد الملك، يقول فيها: "سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن، تأدية لحق الله تعالى، إنّّه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضوا بسخط ربّهم، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للأخرة وسلم للدّنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنّهم لم يألوا الأمانة تضییعا والأمانة كسفا وخسفا، وأنت مسؤول عمّا اجترموا، وليسوا مسؤولين عمّا اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإنّ أعظم النّاس عند الله غبنا من باع آخرته بدنيا غيره"⁴².

ومن أدب النصائح قول ابن عطاء الله: "يا عبد الله دينك هو رأس مالك، فإن ضييعته ضييعت رأس مالك، فاشغل لسانك بذكره، وقلبك بمحبته، وجوارحك بخدمته..."⁴³.

• أدب الرسائل:

من أدب الرسائل: رسالة الحسن البصري إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز التي يصف فيها الإمام العادل: "الإمام العادل كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرقيقة بولدها، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته..."⁴⁴.

وكذلك رسالة أبي السعود بن أبي العشائر إلى بعض إخوانه: "سألتني أيها الأخ أن أدعو لك، والعبد أقل من أن يجاب له دعاء، ولكن ندعو لك امتثالاً فنقول: ألهمك الله يا أخي ذكره، وأوزعك شكره، ورضاك بقدره، ولا أخلاك من توفيقه ومعرفته، ولا وكلك إلى نفسك، ولا إلى أحد من خليقته، وكتبك عنده ممّن وفي بعهدده وصدق في قوله وفعله..."⁴⁵.

ورسالة الشيخ أحمد التجاني إلى بعض الفقهاء: "...وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُعُوبَةِ انْقِيَادِ نَفْسِكَ عَلَيْكَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَدَوَامِهَا عَلَى التَّخَبُّطِ فِيمَا لَا يَرْضَى، فَتِلْكَ عَادَةٌ جَارِيَةٌ أَقَامَهَا اللَّهُ فِي الْوُجُودِ لِكُلِّ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ وَتَرَكَهَا جَارِيَةً فِي هَوَاهَا، أَنَّ لَا يُسَهِّلَ عَلَيْهِ سَبِيلًا إِلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ، بَلْ لَا يَرَى مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الْخُبْثَ وَالْمَعَاصِي وَالْخُرُوجَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَمَنْ أَرَادَ تَقْوِيمَ اغْوِجَاجِ نَفْسِهِ فَلْيَشْتَغِلْ بِقَمْعِ نَفْسِهِ عَنْ مُتَابَعَةِ هَوَاهَا مَعَ دَوَامِ الْعِزَّةِ عَنِ الْخَلْقِ وَالصَّمْتِ، وَالْإِكْتِنَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَحُضُورِ الْقَلْبِ مَعَ الذِّكْرِ..."⁴⁶.

• أدب الحكايات:

قدّم الصوفيّة نماذج رائعة في أدب الحكايات من خلال سرد الرّؤى والمنامات، ويعدّ خطاب النّفري في كتابه (المواقف) من أدب الحكايات باعتباره حواراً بين طرفين أولهما مطلق وثانيهما محدود، وهو أدب اختلف كثيراً عن سابقه من الموروث الصوفي، فتح للنثر الصوفي فضاء جديداً للإبداع، يمكن وصفه بكونه بدايات لقصيدة النثر. ومن أقوال النّفري في (المواقف) موقف البحر الذي يقول فيه:

"أَوْقَفَنِي فِي الْبَحْرِ فَرَأَيْتُ الْمَرَائِبَ تَغْرُقُ وَالْأُلُوحَ تَسْلُمُ ، ثُمَّ غَرَقْتُ
الْأُلُوحَ ، وَقَالَ لِي : لَا يَسْلُمُ مَنْ رَكِبَ
وَقَالَ لِي : هَلْكَ مَنْ أَلْقَى بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَرْكَبْ

وَقَالَ لِي : فِي الْمَخَاطَرَةِ جُزْءٌ مِنَ النَّجَاةِ ، وَجَاءَ الْمَوْجُ فَرَفَعَ مَا تَحْتَهُ ، وَسَاحَ عَلَى السَّاحِلِ
وَقَالَ لِي : ظَاهِرُ الْبَحْرِ ضَوْءٌ لَا يُبْلَغُ ، وَقَعْرُهُ ظُلْمَةٌ لَا تُمَكَّنُ ، وَبَيْنَهُمَا حِيتَانٌ لَا تُسْتَأْمَنُ
وَقَالَ لِي : لَا تَرْكَبُ الْبَحْرَ ، فَأَحْجُبُكَ بِالْأَلَةِ ، وَلَا تُلْقِ نَفْسَكَ فِيهِ فَأَحْجُبُكَ بِهِ
وَقَالَ لِي : فِي الْبَحْرِ حُدُودٌ ، فَأَيُّهَا يُقْلُكُ
وَقَالَ لِي : غَشَّشْتُكَ إِنْ دَلَّلْتُكَ عَلَى سِوَايَ
وَقَالَ لِي : إِنْ هَلَكْتَ فِي سِوَايَ كُنْتَ لِمَا هَلَكْتَ فِيهِ
وَقَالَ لِي : الدُّنْيَا لِمَنْ صَرَفْتُهُ عَنْهَا ، وَالْآخِرَةُ لِمَنْ أَقْبَلْتَ بِهَا إِلَيْهِ وَأَقْبَلْتُ بِهِ عَلَيَّ

IV. مظاهر التجديد في النثر الصوفي:

قدّم الصوفية على اختلاف طبقاتهم، وعلى مرّ العصور أدب إسلامي رفيع، ومجال واسع في النثر، وباع طويل في كل أغراض الأدب، ومنزلة عالية في التجديد في معاني الأدب وأخيلته وأساليبه، حيث مزجوا بين المعنى والمبنى في ثنائية رائعة زادها صدق العاطفة وعمق التجربة جمالا وبهاء.

1. IV. على مستوى المضمون :

أبدع الصّوفيّة في مجال النّثر فنونا لم تكن موجودة في الأدب العربي ولم يشاركهم فيها أحد كالمدائح النبوية والمناجاة، والاستغاثات والأوراد والأحزاب ... فتفوّقوا في عالم البيان الذي لهم فيه من الآيات ما تقصر دونه أيدي القادة في هذا الميدان، وهذا ما جعله نثرا مستقلا، ليس امتدادا إلا لذاته؛ "نثر مثلّ الوجّه الآخر، الغائب، للنّثر الفقيّ؛ ذلك الوجّه، الباطنيّ؛ الذي لا يقلّ حضورا، أو توقّدا عن الهيئة الظاهرية"⁴⁷.

وهو وحده الذي "امتلك الإبداع الأعلى الذي صنع الشّخصيّة الخلقية بصبغته، وأسمعنا في جرسها ألحان الملائكة أورادا وتسبيحا. وأنجب لنا الصّور الإيمانية المتعالية في مثاليّاتها الصّاعدة إلى الأفق الأعلى الذي تلتمع فيه البروق وتفنى على حوافه مادّيات البشريّة وأهواؤها"⁴⁸

ويمثّل أيضا "نماذج للفضيلة والخير، تهتف بها لحنونه وتنطق بها كلماته، وهو الأدب العاطفي الحار في مناجاته وابتهالاته وسبحاته، أدب فنيّ أصيل ابتدع فن أدب الحب الإلهي، بل أدب الحب الكوني، الحب لكل شيء في الوجود، حب الجمال المطلق السّاري في كل ذرة أبدعها المبدع الأعظم.

كما أنه أدب موضوعي، يستهدف رسالة في علم النفس والأخلاق والتربية، ولا يستطيع أن يخلق حول قممها سواه. فالحديث عن أهواء النفس الظاهرة والخفية، وشهوات القلب الواضحة والمضمرة، ونوازع الخير والشر، وما يترقرق بينهما من صور وألوان تمتزج حيناً وتفترق أحياناً، تراث صوفي عجزت الفلسفة قديمها وحديثها عن أن تنازعه ألويته.

2. IV. على مستوى الشكل :

تَجَلَّى اسْتِقْلَالُ النَّثْرِ الصُّوفِيِّ الشَّعْرِيِّ، عَنْ آيَاتِ النَّثْرِ الْفَقِيِّ الَّتِي هَيَمَتْ عَلَى الْمَشْهَدِ الْإِبْدَاعِي فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ، فِي عِدَّةٍ مَظَاهِرَ؛ "أَجْلَاهَا أَنَّ مَدَارَاتَهُ الْأَسَاسِيَّةَ قَدْ ظَلَّتْ مَشْغُولَةً بِتَصَوُّرَاتِ الْحَالَةِ، وَلَيْسَتْ بِمُفْتَضِّياتِ الْغَرَضِ، وَتَخَلَّتْ عَنْ سَرَطَانَاتِ الرَّخْفَةِ الْبَلَاغِيَّةِ، وَعَمَدَتْ إِلَى تَفْجِيرِ أَضْرَحَةِ اللُّغَةِ، وَتَفْجِيرِ أَغْوَارِ الْحَالَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي حُقُولِ اللُّغَةِ، وَالْكَشْفِ عَنْ لَوَاعِجِ تَنْضُورٍ فِي أَعْمَاقِ الرُّوحِ الْجَيَّاشَةِ، وَحَرَكَةِ الرُّؤْيِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَمَجَازَاتِ الْكُشُوفِ وَالتَّرْقِيِ الرُّوحِيِّ.

وَكَشَفَتْ عَنْ حِسِّ مِيتَافِيزِيْقِيٍّ مُتَضَرِّمٍ وَمُتَآرِجٍ، وَامْتَلَأَتْ بِالْمُنَاجِيَّاتِ الْفَيَاضَةِ الْمَكْلُومَةِ، فِي إِيقَاعِيَّةٍ مُكْتَفَةٍ؛ هِيَ إِيقَاعِيَّةٌ تَجَرَّبَتْهَا الْإِنْسَانِيَّةُ ذَاتِهَا؛ فَحَجَمُ الْعِبَارَةِ وَبِنْيَتُهَا التَّرْكِيْبِيَّةُ يَتَحَدَّدَانِ بِمَدَّاتِ الْإِيْقَاعِ وَدَرَجَتِهِ وَحَالَتِهِ، وَجَسَدَتْ أَنْسَجَتُهَا اللَّغَوِيَّةُ أَنْزِيَّاحَاتٍ عَنْ النَّمُودَجِ الْفَقِيِّ الْمُتَمَيَّنِ؛ وَالْمُتَمَيَّلُ فِي الْإِنْشَائِيَّاتِ اللَّغَوِيَّةِ الثَّقِيلَةِ، وَالزَّخْمِ الْبَدِيعِيِّ وَالْبَيَانِيِّ الْكَثِيفِ، وَالتَّوَازِيِ الْإِيْقَاعِيِّ الْمُتَكَرِّرِ؛ الشَّيْبَةِ - فِي دَائِرَتِهِ - بِنِظَامِ الْبَيْتِ، فِي الشَّعْرِ الْبَيْتِيِّ الْمَوْزُونِ الْمُقْفَى، وَاسْتُخْدِمَتْ السَّجْعُ أَحْيَانًا؛ وَلَكِنَّهُ اسْتُخْدِمَ خَاصًّا؛ لِتَشْكِيلِ مُنَآخٍ مُخْتَلِفٍ عَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ كُتَابُ النَّثْرِ الْفَقِيِّ الْمُبْدِعُونَ، وَهُوَ مَا سَوْفَ يَبْدُو لَدَى الْحَلَّاحِ"⁴⁹.

فالحلاج قد سبق النَّفَرِي إلى تثوير النص الصوفي من جوانبه الشكلية والفنية، حتى أن نصوصه في كتاب (الطواسين) تعدّ بداية للشعر الحر أو قصيدة النثر، ومن أقواله:

"سراج من نور الغيب بدا وعاد

وجاوز السراج وساد

قمر تجلى بين الأقمار

كوكب برجه في فلك الأسرار

أنوار النبوة من نوره برزت

وأنوارهم من نوره ظهرت

وليس في الأنوار نور أنور وأقدم من القدم

سوى نور صاحب الكرم⁵⁰

وبفضل هذا الزخم الاستبصاري استطاع الرجل أن يحيل اللغة المنثورة إلى شعر أو إلى برهة تتوسط بين الشعر والنثر، بل توفق بينهما على نحو مدهش . وعلى منواله نسج النفري وغيره من أرباب التصوّف.

خاتمة

في الأخير يمكن القول إنّ النثر الصوفي شعري بملامحه الخاصة؛ شكلا ومضمونا، إنّهُ نتاج وعي خاصّ ومُستقلّ، وجاء أدائه مُلائمًا لهذه التجربة، غيّر باحث له عن تجسّد في صيغة قائية، وهذا ما جعله كيانًا خاصًا قائمًا أمام كيانات النثر الفنيّ الغفيرة، المُهمّنة على خريطة الإبداع العربيّ، وإن كان هذا الكيان الخاص قد ظلّ محكومًا عليه بالإقامة في الهامش ولعمد طويّلة.

كما أنّه موهبة كتابية منفردة في التعبير والرؤية، في الشكل والمضمون، وحّد بين اللفظ والمعنى وذلك لاتصال اللفظ بالظاهر والمعنى بالباطن عند الصوفيّة، طالما أن الألفاظ تقع في السمع والمعاني تقع في النفس والجمال مصدره المعنى، وهذا كان من الممكن أن يؤدي إلى ظهور قواعد جمالية جديدة ومقاييس جديدة في النّقد لو درّس دراسات جادة.

وهذا ما يدفعنا إلى الدّعوة إلى دراسات جادة في النثر الصوفي من أجل فهم الشّخصيّة الإسلاميّة تفهّمًا كاملا وصحيحا، لبناء نماذج جديدة من الفكر الإسلامي. هذا من جهة ومن جهة أخرى لتجديد أدوات النّقد ومقاييسه من أجل أن يؤدي الأدب دوره الإيجابي والفعال في المجتمع.

الهوامش :

¹ ينظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، مطبعة الرسالة، القاهرة، دط، دت، ج4، ص 71، 72، 73.

² ينظر: زكي المبارك، التصوف الإسلامي، مطبعة الرسالة، القاهرة، دط، 1938، ج1، ص 113.

³ سورة العنكبوت، الآية 69.

⁴ علي حراز بن العربي براده المغربي، جواهر المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التجاني، تح: محمد الراضي

كنون، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، ج2، ص 539، 540.

⁵ الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994، ص 09.

⁶ المرجع نفسه، ص 9.

⁷ المرجع نفسه، ص 9.

⁸ نقلا عن: عاصم إبراهيم الكيالي، اللطائف الإلهية في شرح مختارات الحكم العطائية لابن عطا الله السكندري، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص 20.

⁹ سورة البقرة، الآية 195.

- ¹⁰ سورة البقرة، الآية 222.
- ¹¹ سورة التوبة، الآية 04.
- ¹² سورة آل عمران، الآية 146.
- ¹³ عرض ونقد القضايا النقدية في كتاب النثر الصوفي للدكتورة وضى يونس، مصطفى العلواني، 2008/02/13، ص 6:15، ص <http://www.startimes.com>. 06
- ¹⁴ شريف رزق، النثر الصوفي الشعري ومراوغات ما وراء اللغة، الحوار المتمدن، 20/02/2015، ص 01. <http://www.m.ahewar.org>
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص 01.
- ¹⁶ خفاجة، عبد المنعم، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، مصر، دط، دت، ص 92.
- ¹⁷ المرجع نفسه، ص 85.
- ¹⁸ مبارك، ، التصوف الإسلامي، ج 1، ص 136.
- ¹⁹ خفاجة، عبد المنعم، الأدب في التراث الصوفي، ص 89.
- ²⁰ السكندري، ابن عطاء الله ، الحكم العطائية، شرح: ابن عباد النفري الرندي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط 1، 1988، ص 61.
- ²¹ المرجع نفسه، ص 62.
- ²² المرجع نفسه، ص 88.
- ²³ المرجع نفسه، ص 85.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص 87.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص 88.
- ²⁶ عبد المنعم خفاجة، الأدب في التراث الصوفي، ص 107.
- ²⁷ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، تح: خليل منصور دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 03، 2005، ص 119.
- ²⁸ خفاجة، عبد المنعم، الأدب في النثر الصوفي، ص 112.
- ²⁹ حرازم، الحاج علي، جواهر المعاني، ج 1، ص 272، 273.
- ³⁰ ومن مشهور المؤلفات الصوفية في الأحزاب والأوراد كتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار - صلى الله عليه وسلم- لأبي عبد الله محمد بن سليمان بن أبي بكر الجزولي (ت 870 هـ). من الأحزاب قصيدة أسماء الله الحسنى لصيغة الله الشهرزوري وقد شرحها عبد القادر الجيلاني (ت 561 هـ).
- ³¹ خفاجة، عبد المنعم، الأدب في التراث الصوفي، ص 108.
- ³² المرجع نفسه، ص 108.
- ³³ نقلا عن: المرجع نفسه، ص 108.
- ³⁴ المرجع نفسه، ص 227.
- ³⁵ وقد ألف مفتي الديار المصرية علي جمعة محمد كتاب (الكنوز المحمدية في الصلاة على خير البرية صلى الله عليه وسلم) جمع فيه أغلب الصلوات الواردة عن العارفين بالله.
- ³⁶ حرازم، الحاج علي، جواهر المعاني، ج 2، ص 724.
- ³⁷ المرجع نفسه، ص 724.
- ³⁸ عبد المنعم خفاجة، الأدب في النثر الصوفي، ص 114.
- ³⁹ المرجع نفسه، ص 115، 116.
- ⁴⁰ جلال الدين الرومي، المثنوي، ص 67.
- ⁴¹ عبد المنعم خفاجة، الأدب في التراث الصوفي، ص 67.

- ⁴² أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، ج 1، ص 133.
- ⁴³ نقلا عن: عبد المنعم خفاجة، الأدب في التراث الصوفي، ص 98.
- ⁴⁴ المرجع نفسه، ص 91.
- ⁴⁵ المرجع نفسه، ص 104.
- ⁴⁶ الحاج علي حرازم، جواهر المعاني، ج 2، ص 784.
- ⁴⁷ شريف رزق، النثر الصوفي الشعري ومراوغات ما وراء اللغة، ص 03.
- ⁴⁸ خفاجة، الأدب في التراث الصوفي، ص 72.
- ⁴⁹ شريف رزق، النثر الصوفي الشعري ومراوغات ما وراء اللغة، ص 06.
- ⁵⁰ العلاج، الأعمال الكاملة، تح: قاسم محمد عباس، مكتبة الإسكندرية، مصر، دط، دت، ص 162.

المراجع:

- أحمد، أمين، (2013)، *ظهر الإسلام*، دط، مطبعة الرسالة، القاهرة، ج 4.
- الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، *زهر الآداب وثمر الألباب*، ج 1.
- العلاج، (دت)، *الأعمال الكاملة*، تح: قاسم محمد عباس، دط، مكتبة الإسكندرية، مصر.
- زكي المبارك، (1938)، *التصوف الإسلامي*، دط، مطبعة الرسالة، القاهرة، ج 1.
- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، (2005)، *الرسالة القشيرية*، ط 3، تح: خليل منصور دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الكيالي عاصم إبراهيم، (2003)، *اللطف الإلهية في شرح مختارات الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري*، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- خفاجة عبد المنعم، (دت)، *الأدب في التراث الصوفي*، دط، مكتبة غريب، مصر.
- السكندري، ابن عطاء الله، (1988)، *الحكم العطائية*، ط 1، شرح: ابن عباد النفري الرندي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة.
- الحاج حرازم علي بن العربي براده المغربي، (2011)، *جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني*، ط 1، تح: محمد الرازي كنون، دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب، ج 2.
- الكلاباذي، (1994)، *التعرف لمذهب أهل التصوف*، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- العلواني، مصطفى، «عرض ونقد القضايا النقدية في كتاب النثر الصوفي للدكتورة وضى يونس»،
<http://www.startimes.com.2008/02/13>
- شريف رزق، «النثر الصوفي الشعري ومراوغات ما وراء اللغة»، الحوار المتمدن، 20 / 02 / 2015.

<http://www.m.ahewar.org>

لنقتبس من المؤلف:

تجاني، أمينة، (2021)، النثر الصوفي وفنونه الأدبية بين التقليد والتجديد "نماذج مختارة"، المجلد

06، الرقم: 01 <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/48>